11سبتمبر 2001

حتى ذلك اليوم كنا قد أكملنا العشرين يوماً تقريباً.. كانت تلك الأيام بمثابة شهر العسل، فقد كانت الوجوه مرحبة (...Hello) تسمعها من كل عامل أو موظف، والابتسامات تتوزع (... Hi) من كل شخص تقابله أو تتعامل معه دون قيود في الممرات وفي الشوارع والمحلات التجارية، وعند نقاط المحاسبة في المحلات التجارية (cashier)، وحتى وإن كان هناك بعض الاستغراب من بعض الريفيين (المزارعين) عند رؤية نسائنا وهن محجبات. إلا أن المعاملة يعلوها الاحترام والتقدير خصوصاً عند مناقشتهم وإخبارهم أن ذلك راجع لتعاليم ديننا الحنيف الذي يأمرنا بذلك دون تقيد بزمان أو مكان. ومن الشواهد على ذلك التعامل الحسن والراقي أنه عند إدخالي لأبنائي المدرسة الأمريكية طلبت منهم أمرين اثنين:

الأول: يتعلق بالأكل، حيث كانت المدرسة تقدم وجبتين ـ وجبة إفطار، ووجبة غذاء فطلبت عدم تقديم أي وجبة لأبنائي يوجد بها لحم خنزير أو مشتقاته، فما كان منهم إلا الاستجابة مع نصحي أن يكون ذلك خطياً، وأن يوضع في ملف كل طالب منهم، لكي يؤخذ الأمر بجدية وتتم المحاسبة إذا حدث خلاف ذلك.

الثاني: كان أيضا في المدرسة، فقد كان لدي طفلتان في المستوى الخامس والسادس وكانت طرق التدريس تختلف عما اعتادوا عليه في السعودية، فالفصول الدراسية لم تكن تقليدية حيث

كان الفصل ينقسم إلى مجموعات ويجلس الطلاب على طاولات مستديرة. وفي أول يوم دراسي لهم ذهبت أنا ووالدتهم معهم، وجاء توزيعهم في فصلين مختلفين، وعندما تفقدنا أماكنهم وجدنا أن إحداهن كانت تجلس ضمن مجموعة بنات، فحمدت الله، وعند الانتقال إلى الفصل الثاني لابنتي الثانية وجدت أن المجموعة التي تجلس ضمنها ابنتي يوجد فيها صبي، عندها طلبت من المدرسة أن تقوم بتبديله بطالبة، عندها سألتني: لماذا؟ وهل ذلك بسبب الدين؟... فأجبتها: نعم، هذا ما يأمرنا به ديننا الحنيف، فما كان منها إلا أن لبت الطلب بكل رضىً ودون امتعاض واحترمت طلبي.

أعود إلى العشرين يوماً التي مرت علينا منذ أن وصلنا إلى كاربنديل، فأقول إنها مرت سريعة، وقد كانت مليئة بالأحداث التي شغلتنا حتى عن تأمل تلك المدة، ومن ثم مقارنتها مع الأيام التي تلتها، فقد كانت الدراسة هي الهم الكبير، علاوة على هم الاستقرار والاطمئنان على الأهل ودراسة الأبناء وكذلك بعض المشكلات التي تطرقت لها عند وصولي إلى كاربنديل.

ولكن كم هو محظوظ من يجد في بلد الغربة إخوة أعزاء يعينونه على الحق ويقفون بجانبه ويشدون من أزره، ويتنافسون على الوقوف إلى جانبه وعلى الدعم المعنوي واللوجستي الذي لا يستطيع أن يقول فيه أي شخص إلا أن إخوته هم من وقفوا بجانبه.. ولكي أكون أكثر

دقة وإنصافاً، لم أحس ولاسيما في تلك المدة ببعد كل من (سلطان وحمدان وبندر وعقاب) وهم أشقائي وذلك لوجود أشقاء لي هنا لم تلدهم أمي. كنت دائماً أتذكر كلام معلمي حفظه الله ـ والدي العزيز ـ حينما كان يقول لي دائماً: (يا ولدي ابنِ لك أو خلِّ لك في كل وادٍ حصناً)، والحصون أو القلاع وكلنا نعرفها، تعطيك الحماية والشعور بعد الله سبحانه وتعالى بأنك في أمان. نعم، فقد كان كل من (أبو مبارك وأبو عادل وأبو البراء وأبو عبد الله العيسى وأبو يزيد وأبو عبدالعزيز، وقد لحق بنا الأخ أبو محمد وهو حبر من أحبار الرياضيات المعاصرة) هم حصوني.. هم من وقف في البدايات معي.. هم من استقبل.. هم من رحب.. هم من ساند، وهذا فضل من الله في أن يمنَّ عليَّ بتلك الصحبة الطيبة. هنا لا أنسى بعض الإخوان العرب والمسلمين في تلك المدينة الصغيرة، ولكن حصوني هم من كان لهم الفضل عليَّ بعد الله سبحانه وتعالى. ولعلمي التام بأنهم لا يحبذون هذا الإطراء فقد كانوا يتعاملون بدافع من دينهم وعاداتهم وتقاليدهم الأصيلة، ولو ذكرت كل ما قدموه لي ولعائلتي لما كفاني مجلدان من النوع الفاخر والفاخر جداً.

في صبيحة يوم 11 سبتمبر... كان لدي محاضرة بالجامعة الساعة التاسعة صباحاً.. فاستيقظت الساعة السادسة صباحاً تقريباً، وتأهبت كالمعتاد للخروج من المنزل في الثامنة والنصف، وذلك لقرب الحي الذي أسكن فيه من الجامعة. ولما وصلت إلى الجامعة وتحديداً قرب المبنى الذي تقام فيه المحاضرة بحثت عن موقف للسيارة وقد

استغرقت مدة عشر دقائق أبحث وأنتظر لعل أحد الطلبة يخرج فآخذ مكانه.. عندها رأيت إحدى الطالبات (أمريكية) تجري وتبكي بصوت عالٍ، فحاولت أن أسألها بلطف: هل تنوي الخروج من الموقف لكي أوقف سيارتي مكان سيارتها، إلا أنها بادرتني وقالت: هل رأيت ماذا حصل في مركز التجارة العالمي بنيويورك، إن صديقي يعمل هناك ولا أعلم ماذا حصل له، عندها أجبتها بأني لا أعلم ماذا حصل؟ ولكني سألتها عما حصل، فأجابت بأن المركز تعرض لهجوم بطائرات مدنية فانهار أحد المبنيين، ثم تركتني وجرت من أمامي.

عندها لا أعلم ماذا أصابني، ولكنني لم أتخيل حجم الأضرار، ولم أُعِر الأمر الاهتمام الكافي.. فأمريكا خصومها كثر في الداخل والخارج، وقلت لنفسي: ربما يكون حادثاً عابراً.

أفكار كثيرة ولكن حتى تلك اللحظة لم تحظَ مني باهتمام كبير، عندها أوقفت السيارة وذهبت إلى المحاضرة وفي الطريق رأيت الطلبة يتجمعون حول أجهزة التلفاز ويتبادلون الاتصالات عبر الجوال وكلٌ يعطي تبريراته ورأيه حول ما حصل وبدأت أسمع بعض الكلمات النابية والموجهة... ذهبت إلى القاعة فوجدتها قاعاً صفصفاً، وعندما سألت أحد المارة عن الطلاب، قال لي إنهم كلهم في المعامل (laps)، يستمعون إلى الأخبار عبر قناة الـ (CNN)... ذهبت إليهم لأرى وأسمع معهم، عندها أخذت (head phone) وبدأت أتنقل بين القنوات أسمع التحليلات وأرى الدمار.. فإذا المباني تسقط الواحد تلو الآخر.

عدت إلى البيت وكانت الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وعندما دخلت البيت لم يكن قد وصل الخبر إلى الأهل، فأخبرت أم عبد الله عما حدث وبدأنا في متابعة الأخبار عبر القنوات الإخبارية التي كانت تحلل وتتوقع من الفاعل إلى أن ظهر من تبنى ذلك الحادث.

❀ ❀ ❀

مشاهد أخرى

المشهد من نيويورك ومن بعض المدن الأخرى حسب ما كانت ترويه وسائل الإعلام وحسب رواية بعض العرب والسعوديين المتواجدين

هناك سواء للدراسة أم للعمل. ففي إحدى القاعات بكلية إدارة الأعمال بجامعة كولومبيا في نيويورك جلس الطلبة يحاولون التركيز مع أستاذة المحاسبة، بينما كانت عقولهم وأنظارهم مركزة على شاشات الإنترنت التي أمامهم من خلال أجهزتهم الشخصية يتابعون ما يحدث في الجزء السفلي من جزيرة مانهاتن. وصاح أحدهم: لقد سقط البرج الأول.. وبعدها بدقائق صاح مجدداً: لقد سقط البرج الثاني!!